﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس: 76 - 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

الـرّبـطُ بـينَ تكذيبِ مُوسى وهارونَ، وادّعاءُ المُكذِّبينَ أنّ ما جَاءَا بِهِ سِحرٌ

مُناسبةُ الآيتينِ لِما قبلَهما أنّ اللّه تعالى لمّا أخبرَ أنّهُم قدِ استكبَرُوا: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ "بَيَّنَ أنّهُ تَسَبَّبَ عَنهُ طَعنُهم في مُعجزاتِهِ مِن غَيرِ تَأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادَرَةِ والإسراعِ بما أشعَرَت بهِ الفاءُ والسّياقُ، فقالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾"[1]، ذلك أنّه" لمّا جاءَهُم مُوسى وهارونُ بالحقِّ الواضحِ، والدّليلِ القاطعِ على صِدقِ نبوّتِهما، قالُوا: إنّ هذا لَسِحرٌ واضحٌ لِمَن رآهُ وعاينَهُ، وهُم يَعلمونَ في قَرارةِ نفوسِهِم أنّهُم كاذبونَ"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسِحۡرٞ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على الخدعِ وشِبْهِهِ، فَالسِّحرُ: إخراجُ البَاطِلِ في صُورَةِ الحَقِّ، ويُقَالُ هُوَ الخَدِيعَةُ[3]. والسِّحرُ يُقالُ على مَعانٍ؛ منها: الخِداعُ، وتَخْيِيلاتٌ لا حَقيقةَ لَها، نحو مَا يفعلُهُ المُشَعْوِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لِخفَّةِ يدٍ، ومَا يَفعلُهُ النَّمَّامُ بقولٍ مُزَخرَفٍ عائقٍ لِلأسماعِ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: 116]، وقالَ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ [طه: 66]، وبهذا النّظرِ سمَّوْا مُوسى عليه السلام سَاحِرًا فقالُوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزّخرف: 49]، ومنها: استجلابُ مُعاونةِ الشّيطانِ بضربٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.
(2) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 1441.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).

مِنَ التَّقرُّبِ إليهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشّعراء: 221 - 222][1].

2) ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾: (فلح) الفَاءُ واللَّامُ والحَاءُ أصلَانِ صَحِيحَانِ؛ أحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى شَقٍّ، والآخَرُ: عَلَى فَوزٍ وبَقَاءٍ[2]. والفَلَح والفَلاحُ: الفَوزُ والنَّجَاةُ والبَقَاءُ في النَّعِيمِ والخَيرِ[3]، وهو: الظَّفَرُ وإدراكُ بُغيَةٍ، وذلك ضربَانِ: دُنيَوِيٌّ وأُخرَوِيٌّ؛ فالدُّنيويُّ: الظَّفرُ بالسَّعادَاتِ الّتي تَطِيبُ بها الحَيَاةُ الدُّنيَا، وهو البقاءُ والغنَى والعِزُّ، وفَلَاحٌ أُخرَوِيٌّ، وذلك أربعةُ أشياء: بَقاءٌ بلا فَناءٍ، وغنى بلا فَقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعِلمٌ بلا جَهلٍ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22][4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى عنِ المحاورةِ بينَ مُوسى ﷺ بعدَ أنّ أظهرَ لَهُم الحقَّ بالبراهينِ القاطعةِ؛ أنّهُم "لمّا ظَهَرَ لَهُم الحقُّ مِن عندِنا على يدِ مُوسى قالوا في مُعجزةِ مُوسى، وهي العصا الّتي انقلبَت حيّةً أمامَ أعينِهِم: إنّ هذا سِحرٌ مُؤكَّدٌ واضحٌ، قالَ لَهُم مُوسى مُستنكِرًا: أتصفونَ الحقَّ الّذي جِئتُكُم بهِ مِن عندِ اللّه بأنّهُ سِحرٌ؟ أتكونُ هذه الحقيقةُ الّتي عاينتُمُوها سِحرًا؟"[5]، والحالُ أنّ السّاحِرينَ لن يُفلِحُوا أبدًا.

تـأكـيـدُ مُـوسى أنّ مـا جـاءَ بـهِ مِـنَ الـلـهِ، ولـيس سِـحـرًا، فـالـسَّـحـرةُ لا يُفلِحونَ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّدرُّجِ في الآيةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ

الاسـتـكـبـارُ والـتَّـولِّي يُفضي إلـى الافـتـراءِ والإفكِ

(1) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فلح).
(4) الرّاغب، المفردات: (فلح).
(5) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299 - 299.

﴿مُّبِينٌ﴾ بيانٌ لإيغالِهم في الضّلالِ، فلمّا "رَأوا المُعجزاتِ الّتي هي حقٌّ ثابتٌ، وليسَت بِتَخيُّلاتٍ وتَمويهاتٍ، وعَلِمُوا أنّ مُوسى صادِقٌ فيما ادَّعاهُ، تَدَرَّجُوا مِن مُجرَّدِ الإباءِ المُنبَعِثِ عَنِ الاستكبارِ إلى البُهتانِ المُنبَعِثِ عَنِ الشُّعورِ بالمَغلُوبِيَّةِ"[1]، وهذا يُبيّنُ على سَبقِ إصرارِهم على مُواجهةِ الحقِّ بالتَّمسُّكِ بضلالِهم.

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ مُبيِّنةٌ عن مَحذوفٍ ذُكِرَ في مَواضِعَ أُخر

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ افتتحَ النّظمُ الكريمُ الآيةَ بالفاءِ الفصيحةِ؛ لِتُفْصِحَ عن مَحذوفٍ، قد صُرِّحَ بهِ في آياتٍ أخرى، "كأنَّهُ قِيلَ: قالَ مُوسى: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾"[2]، كما أنّ العطفَ بالفاءِ يدُلُّ على السَّببيّةِ والمبادرةِ بلا مُهلةٍ، فبيَّنَ "أنّهُ تَسَبَّبَ عنهُ طَعنُهم في مُعجزاتِهِ مِن غيرِ تَأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادرةِ والإسراعِ بما أشعَرَت بهِ الفاءُ والسِّياقُ، فقالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾"[3].

دلالةُ (لمّا) في ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾:

مِن سوءِ التّقديرِ أن يُبادروا الحقَّ المُستبينَ بالاتّهامِ المهينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ بَيَّنَ النّظمُ الكريمُ أنّ نسبتَهُم لِمَا جاءَ بهِ مُوسى إلى السِّحرِ، كانَ حينَ رأيتهم المعجزة، فعَمَدُوا على وجهِ العجالةِ إلى الافتراءِ، مِن غيرِ تأنٍّ ولا نظرٍ، لما أسقطَ في أيديهم، إذ لم يجدُوا له رَدًّا يجيبونَهُ بهِ غير نسبتِهِ إلى ما يُجهَلُ، ولا يعرفُ حقيقتَهُ مِنَ الأوهامِ والتَّخييلِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/248.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿جَآءَهُمُ﴾:

مـجـيءُ الـحـقِّ حـجّـة عـلى المُـخـاطَـبـيـنَ بالبلاغِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ دلَّ الفعلُ (جَاءَ) على ثبوتِ الحقِّ، والمقصودُ مِن ذكرِ مجيءِ الحقِّ إثباتُ صدقِ مُوسى في رسالتِه، فَمجيءُ الحقِّ ثبوتُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: 81][1]، ومفادُ السّياقِ: فلمّا جاءَهُمُ الحقُّ مِن عندِنا، وعَرَفُوهُ، قالُوا مِن فَرْطِ عُتُوِّهِم وَعِنَادِهِم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهِرٌ كونُهُ سِحرًا، أو فائِقٌ في بابِهِ، واضِحٌ فيما بينَ أضرابِهِ، وقُرِئَ: (لَساحِرٌ)[2].

الغرضُ مِنَ المجازِ في قولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾:

مـجـيءُ الـحـقِّ ظـاهـرٌ ظـهـورَ الـشّـخـصِ للعيانِ بحضورِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أسندَ المجيءَ إلى الحقِّ، والحقُّ لا يأتي؛ ولكِنْ يُؤتَى بهِ، على طريقةِ المجازِ العقليِّ، وهذا يَخْلَعُ على المعنى قوّةً وجمالًا؛ حيث جَعَلَ الحقَّ مُشخَّصًا يأتي بنفسِهِ دليلًا على قُوَّةِ الحضورِ والاتّضاحِ، وفي ذلكَ قالَ الشّهابُ الخفاجيُّ: "جَعَلَ الحقَّ كشخصٍ جاءَهُم مِنَ اللّه على طريقِ الكنايةِ والتّخييلِ، وهذا يدُلُّ على غايةِ ظهورِهِ، بحيثُ لا يَخفَى على ذي بَصَرٍ وبَصيرةٍ"[3].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

الـتّـعـبـيرُ عـنِ الـدّعـوةِ بلفظِ (الحقّ)، تأكيدٌ لثبوتِها بهذا الوصفِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ أطلقَ النّظمُ الكريمُ على رسالةِ مُوسى ﷺ لفظَ الحقِّ؛ تعبيرًا عن صدقِ الرّسولِ والرّسالةِ، وفي ذلك تصريحٌ بأنّهُم أدركُوا حقّيّةَ الدّعوةِ وصدقَها، فالتّعبيرُ عنها بالحقِّ تأكيدٌ لكونِها قد ثَبَتَت لَهُم بهذا الوصفِ، ولو لم يكُنْ قد ثَبَتَ لَهُم ذلكَ لَما أطلقَ عليه (الحقّ)، وقولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/50.

ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾؛ "يَعني: الآياتِ المُزِيحَةَ لِلشّكِّ، ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ يعني مِن فَرطِ التَّمرُّدِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: تَلبِيسٌ ظاهِرٌ"[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ وإيجازها:

مـصـدرُ الآيـاتِ مِـــن عـطـاءِ الرّحمـنِ، فهي جديرةٌ بالبيانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ قَيَّدَ الحقَّ بكونِهِ جاءَ مِنَ اللّه تعالى؛ تَعظيمًا لهُ، وإعلامًا بأنّهُ حقٌّ ظاهِرٌ، بحيثُ إنّهُ لا تغيبُ صحّتُهُ عن أحدٍ، وفيه تأكيدٌ لاستحقاقِهِ أن يُوصَفَ بالحقِّ لكونه صادرًا مِنَ اللّه تعالى، كما أنّه يُشيرُ إلى علّةِ كونِهِ حقًّا، وهو أنّهُ آتٍ مِن عندِ اللّه العظيمِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿عِندِنَا﴾:

مجيءُ الحقِّ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِنَ المُبَلِّغينَ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ أضافَ الظّرفَ إلى ضميرِ التّعظيمِ؛ أي: جاءَهُمُ الحقُّ "على ما لَنا مِنَ العَظمةِ الّتي عَرَفُوا بها أنّهُ مِنّا، لا مِنَ الرُّسُولَينِ"[2]، كما أنّهُ يُصرِّحُ بأنّهُ حقٌّ صادرٌ مِنَ اللّه تعالى لا من مُوسى وهارونَ[3] عليهما السلام.

دلالةُ جملةِ القولِ في قولِهِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾:

لابُـدَّ لِلمَغلوبِ مِن زائفِ العذرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ بيانٌ لِشدَّةِ ما وَقَعُوا بهِ؛ منه: الغَلَبُ بعدَ أن أظهرَ مُوسى عليه السلام آياتِهِ البيّناتِ، فتركُوا الحقَّ، وبادرُوا بالاتّهامِ، فَنَسبُوهُ لِلسِّحرِ، فإنّ "اعتذارَهُم عن ظهورِ الآياتِ بأنّها سِحرٌ، هو اعتذارُ المَغلوبِ العَديمِ الحُجَّةِ الّذي قهرَتهُ الحُجَّةُ، وبَهَرَهُ سُلطانُ الحقِّ، فلَم يبقَ لَهُ مُنتَشَبٌ مِنَ المُعارَضةِ المَقبُولَةِ، فَهُوَ يَهرَعُ إلى انتحالِ مُعارَضاتٍ بِمَعاذِيرَ لا تَدخُلُ تحتَ التَّمحِيصِ، ولا تَثبُتُ في مَحَكِّ النَّقدِ"[4].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/51.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.

علّةُ وصفِهم الحقَّ بأنّهُ (سِحرٌ):

وَصَـفَ الحـقَّ بالسِّحرِ؛ لِكونِهِ يُـفـضي إلى مـا في نـفـوسِ المَسحـوريـنَ كالسِّحرِ

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ نَسَبُوا مُوسى عليه السلام إلى السِّحرِ، ووصفُوا الحقَّ بأنَّهُ سِحرٌ، والغرضُ مِن ادِّعاءِ الحقِّ سِحرًا؛ "أنَّ دَلائِلَهُ مِن قَبيلِ التَّخَيُّلاتِ والتَّمويهاتِ، فَكَذلِكَ مَدلُولُهُ، هُوَ مَدلولُ السِّحرِ، وهُوَ إنشاءُ تَخَيُّلٍ بَاطلٍ في نفوسِ المَسحورينَ، وقد حَمَلَهُمُ استِشعارُهُم وهَنَ مَعذِرتِهِم، على أن أبرَزُوا دَعواهُم في صورةِ الكلامِ المُتَثَبِّتِ صاحِبُهُ، فَأكَّدُوا الكلامَ"[1].

الغرضُ مِن تأكيدِ الخبرِ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ في الآية:

لمّا خافُوا تطرُّقَ الإيمانِ لقلوبِ النّاسِ أكَّدُوا افتراءَهُمُ المشؤومَ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لمّا كانَ مجيءُ مُوسى بالآياتِ في مَشهدٍ مِنَ الملأ، والنّاسُ أجْرَوْا حُكمَهُم عليهِ بالسِّحرِ على وجهِ التّأكيدِ، فأكَّدُوا ذلكَ بصيغةِ الجملةِ الاسميّةِ، وحرفِ التّأكيدِ (إنّ)، واللّامِ؛ دَفعًا لِمَا يكونُ قد أثّرَ في بعضِ الملأ منهُم، فأعلنُوا نسبتَهُ لِلسِّحرِ بطريقةِ الكلامِ الموثوقِ بِهِ والمقطوعِ دَفعًا للشّكِّ، فقالُوا ذلك "مُؤكِّدينَ لِما عَلِمُوا مِن تصديقِ النّاسِ بِهِ"[2]، "لم يكفِهِم – قبّحَهُمُ اللّه – إعراضَهُم ولا ردَّهُم إيّاهُ، حتّى جعلُوهُ أبطلَ الباطلِ، وهو السِّحرُ: الّذي حقيقتُهُ التّمويه، بل جعلُوهُ سِحرًا مُبينًا، ظاهرًا، وهو الحقُّ المُبينُ"[3].

دلالةُ اللّامِ المُزحلَقةِ في ﴿لَسِحۡرٞ﴾:

التّـأكـيـدُ بـأنّ الـحـقَّ سِـحـرٌ، قلبٌ لِلمَوازينِ، ومُناوأةٌ لِلهُدى المُبينِ

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لمّا سَاقُوا الإخبارَ عن كونِهِ سِحرًا على وجهِ التّأكيدِ، ثمّ زادوا التّأكيدَ تأكيدًا بإدخالِ اللّامِ التّوكيديّةِ المُزحلَقةِ على خبر (إنّ)؛ قطعًا لكلِّ احتمالٍ في تطرُّقِ الشَّكِّ مِنَ السّامِعينَ بكذبِ ادّعائِهِم، وقد يكونُ السّياقُ دالًّا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 370.

القَسمِ المُقدَّرِ؛ بمعنى: "أي: أقسَمُوا بإنّ هذا الّذي جاءَ بهِ مُوسى مِنَ الآياتِ الدّالّةِ على صدقِهِ، إنّما هو سِحرٌ بيّنٌ ظاهِرٌ، وإنّما السِّحرُ صناعةٌ باطلةٌ، هُمُ أحْذَقُ النّاسِ بها، فكيفَ يتّبِعونَ مَن جاءَ يُنازِعُهُم سُلطانهم بها"[1].

دلالةُ وصفِ السِّحرِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

سِحرُ البشرِ يَتهافَتُ أمامَ آياتِ اللهِ لِمُوسى وأخيهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ وَصَفُوا السِّحرَ بكونِهِ مُبِينًا، فلَم يَكتفوا بافتراءِ نسبتِهِ إلى السِّحرِ، وتأكيدِهِم لِذلكَ؛ بل أضافُوا إليهِ وَصفًا يدلُّ على كونِهِ الغايةَ في السِّحرِ؛ أي: هو حَاذِقٌ في السِّحرِ[2]، وسِحرُهُ "ظاهِرٌ كونُهُ سِحرًا، أو فائقٌ في بابِهِ، واضحٌ فيما بينَ أضرابِهِ"[3]، ولا شُبهةَ في ذلك؛ إيغالًا منهُم في إضلالِ النّاسِ وصرفِهِم عن آياتِ مُوسى البيّناتِ.

بلاغةُ الفصلِ في قولِهِ: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ﴾:

تقديرُ السّؤالِ في الآيةِ تحريكٌ لِذهنِ السّامِعِ، واستكمالٌ لِهيكلِ القصّةِ

الجُملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ استِئنافٌ "مَبنيٌّ على سؤالٍ تَنساقُ إليهِ الأذهانُ، كأنَّهُ قِيلَ: فماذَا قَالَ لَهُم مُوسى حِينَئذٍ؟ فقِيلَ: قالَ على طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التّوبيخيِّ"[4]، فقولُ مُوسى عليه السلام جوابٌ لِقولِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾، فَفُصِلَ مِنَ العطفِ؛ لأنّهُ حكايةٌ لِلأقوالِ المُساقةِ على طريقةِ المُحاورةِ[5].

دلالةُ الاستفهامِ في ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

تكرارُ التّوبيخِ علامةٌ على قُبحِ ما ادّعَوْهُ

حكى النّظمُ الكريمُ ردَّ مُوسى عليه السلام على تأكيدِهِم وجزمِهِم بأنّ ما جاءَ بهِ سِحرٌ مُبينٌ، فقالَ تعالى حكايةً عَن مُوسى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ﴾ "مُستفهِمًا على جهةِ الإنكارِ والتّوبيخِ، حيثُ جعلُوا الحقَّ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/381.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/50.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167 - 168.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/250.

سِحرًا: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؛ أي: مِثلَ هذا الحقِّ لا يُدَّعى أنَّهُ سِحرٌ"[1]، فالاستفهامُ في الآيةِ لإنكارِ قولِهم وتوبيخِهم عليهِ، وكَرَّرَ الاستفهامَ، فَقالَ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؛ لإنكارِ الوقوعِ، أي: أنّهُ ليسَ بسِحرٍ، فكيفَ تقولونَ لِلحَقِّ الّذي هو أبعدُ شيءٍ مِنَ السِّحرِ أنّهُ سِحرٌ؟! والسِّحرُ باطِلٌ مَحضٌ.

دلالةُ التعديةِ بـ ﴿لِلْحَقِّ﴾:

الحقُّ لا يَستحِقُّ بأيِّ وجهٍ كانَ أن يُوصَفَ بأنّهُ سِحرٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ تعديةَ فعلِ القولِ إلى المَقولِ باللّامِ في قولِهِ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾، ولم يقُلْ: (أتقولونَ عنِ الحقِّ)؛ لأنّه أرادَ معنى الاستحقاقِ، فأنكرَ عليهم اعتقادَهُم استحقاقَ دعوتِهِ وصفَ السّحرِ، فَهُم جعلُوا الحقَّ الّذي جاءَ به مُوسى مُستحِقًّا أن يُوصَفَ بالسِّحرِ، فأنكرَ عليهِم ذلكَ.

دلالةُ حذفِ مَقولِ القولِ في الآية:

حَـــذْفُ ما يُستَنكرُ ويُحرِجُ مِـن أساليـبِ البيانِ القرآنيِّ الفصيحةِ

قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ حَذَفَ النّظمُ الكريمُ مَقولَ القولِ "ثقةً بدِلالةِ مَا قبلَهُ وما بعدَهُ عليهِ، وإيذانًا بأنّهُ ممّا لا ينبغي أن يُتفوَّهَ بهِ، ولَو على نَهجِ الحكايةِ؛ أي: أتقولُونَ لَهُ ما تقولونَ مِن أنّهُ سِحرٌ، يَعني بهِ أنّهُ ممّا لا يُمكِنُ أن يقولَهُ قائِلٌ، ويَتكَلَّمَ بهِ مُتكَلِّمٌ"[2]، فَحَذَفَ ما قالُوهُ، ولم يحكِهِ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، وتقديرُهُ: أتقولُونَ لهذا الحقِّ الّذي جاءَكُم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فَحَذَفَهُ لأنّهُ قولٌ مُنكَرٌ، يَعِفُّ لسانُ العاقلِ عن مثلِهِ، ثمّ قالَ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ فَهُوَ مِن قولِ مُوسى لا مِن قولِهِم، ومِثلُ هذا التّقديرِ المحذوفِ مَوجودٌ في كلامِ العربِ، فيجوزُ حذفُ مَعمولِ القولِ لِلدّلالةِ عليهِ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.

نكتةُ التقديمِ في ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾:

الأجدرُ بالتّقديمِ في السّياقِ، ما كانَ سَببًا لِلحديثِ وأصلًا لهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ قَدَّمَ إنكارَ السِّحرِ على الإشارةِ إليهِ، لأنّ المطلوبَ أوّلًا إنكارُ أن يكُونَ هذا الّذي جاءَ بهِ مُوسى سِحرًا، فَقَدَّمَ "الخبرَ للإيذانِ بأنّهُ مَصَبُّ الإنكارِ"[1]، فالمقصودُ بالإنكارِ قولُهُم أنّهُ سِحرٌ، فتقديمُ ذلكَ أبلغُ في الإنكارِ.

دلالةُ النفي في ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾:

فلاحُ السّحرةِ مُنتفٍ في كلِّ زمانٍ، وذلك حُكمُ اللهِ المُستحقُّ عليهم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن ينفيَ الفعلَ المضارعَ بلا النّافيةِ؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ النّفي في كُلِّ زمانٍ، وليدلَّ على أنّ انتفاءَ الفَلاحِ عنِ السَّحرةِ حقيقةٌ راسِخةٌ دائمةٌ لا تَنتقِضُ، فالصّالحُ لذلك هو نفيُ الزّمانِ في كلِّ حالٍ، وذلكَ هو مَدلولُ النّفي بـ (لا).

دلالةُ النَّفي في قولِهِ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾:

سِحرُ السَّحرةِ ضلالٌ وخَيْبَةٌ، وآياتُ اللهِ إعجازٌ وفَلاحٌ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ جاءَ فيه النّفيُ لتقريرِ أمرِ السِّحرِ، وسُوءِ عقباهُ في الدّنيا والآخرةِ، فَسَلَبَ عنِ السِّحرِ صفةَ الفلاحِ، وهذا يُثبتُ نقيضَها، وهي الخَيبةُ والخسرانُ، كما أنّ فيهِ إثباتًا بأنّ مُوسى صاحبُ المُعجزاتِ المُبطلَةِ للسِّحرِ، والقاهرةِ لِلسَّحرةِ، مُفلِحٌ لأنّهُ ليسَ بساحِرٍ.

دلالةُ إعراب جملة ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾:

النُّبوَّةُ مُنزَّهَةٌ عن أباطيلِ السِّحرِ وضلالاتِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تأكيدُ الإنكارِ، فلمّا نَسبُوهُ إلى السِّحرِ استلزمَ ذلك أن يكُونَ مُوسى ﷺ سَاحرًا، فأُكِّدَ "الإنكارُ السّابقُ، وما فيهِ مِنَ التّوبيخِ والتّجهيلِ، بقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وهو جُملةٌ حاليَّةٌ مِن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168.

ضَميرِ المُخاطَبينَ، والرَّابطُ هُوَ الواوُ بلا ضميرٍ...؛ أي: أتقولونَ لِلحقِّ إنّهُ سِحرٌ، والحالُ أنّهُ لا يُفلِحُ فاعِلُهُ؛ أي: لا يَظفَرُ بِمطلوبٍ ولا يَنجُو مِن مَكروهٍ، فكيفَ يُمكِنُ صُدُورُهُ مِن مِثلِي مِنَ المُؤيَّدِينَ مِن عندِ اللّه العزيزِ الحكيمِ، الفَائِزينَ بكلِّ مَطلَبٍ، النّاجِينَ مِن كُلِّ مَحذُورٍ"[1].

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

التّشابهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصص: 48].

الاختلافُ في اتّهامِ مُوسى بالسِّحرِ المبينِ، والمُقارنةُ بالتّكذيبِ مع النّبيِّ الأمينِ

خَصَّ النّظمُ كلَّ آيةٍ بمَقولِ قولٍ مُناسِبٍ لكلٍّ منهما؛ حيثُ سُبِقَت آيةُ يونس بقولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِۦهِ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، فلمّا كانَ أبرزُ آياتِ مُوسى عليه السلام ما هو كائنٌ مِن جنسِ السِّحرِ ظاهرًا؛ ناسبَهُ أن يحكيَ قولَهُم عنهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، أمّا الآيةُ في سورةِ القَصصِ فهي مَسبوقةٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القَصص: 47]، فلمّا كانَ هؤلاء لم يتّبعوا الآياتِ، إنّما اتّبعوا اليهودَ حين قالُوا لِمَن كَفَرَ مِنَ العربِ قولُوا لِمحمّد ﷺ: لولا أُوتيتَ مثلَ ما أُوتِيَ مُوسى، فإنّهُ أُوتِيَ التّوراةَ دُفعةً واحدةً؛ ناسبَهُ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيّةُ:

الحقُّ والعدلُ:

العَدلُ: مَا قَامَ في النُّفُوسِ أنّهُ مُستقيمٌ، وَهُوَ ضِدُّ الجَوْرِ، وعَدَلَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.

الحاكِمُ في الحُكم يَعدِلُ عَدلًا، وعَدَلَ عَلَيهِ في القضيَّةِ، فَهُوَ عادِلٌ. وفي أسماءِ اللّه سبحانَهُ: العَدْلُ، هو الَّذي لَا يَميلُ بِهِ الهَوَى فيَجور في الحُكم[1]، والعَدَالَةُ والمُعَادَلَةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المَساواةِ، والعَدْلُ والعِدْلُ يَتقاربان، لكن العَدْلُ يُستعمَلُ فيما يُدرَكُ بالبصيرةِ كالأحكام، وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: 95]، والعِدْلُ والعَديلُ فيما يُدرَكُ بالحاسّةِ، كالموزُوناتِ والمَعدُوداتِ والمكيلاتِ[2]، أمّا الحقُّ فأصلُهُ المُطابقَةُ والمُوافَقةُ، كمُطابقةِ رِجْلِ البابِ في حَقِّهِ لِدَوَرانِهِ على الاستقامةِ[3]، والحقُّ يُقالُ على أوجهٍ: الأوّلُ: يُقالُ لِموجِدِ الشّيءِ بسببِ ما تقتضيهِ الحِكمةُ، ولهذا قِيلَ في اللّه تعالى: هو الحقُّ. والثّاني: يُقالُ لِلمُوجَدِ بِحَسَبِ مُقتَضى الحِكمَةِ، ولِهذا يُقالُ: فِعْلُ اللّه تعالى كُلُّهُ حقٌّ، نحو قولِنا: الموتُ حقٌّ، والبعثُ حقٌّ. والثّالث: في الاعتقادِ لِلشّيءِ المُطابِقِ لِما عليهِ ذلك الشّيءُ في نفسِهِ، كقولِنا: اعتقادُ فُلانٍ في البعثِ والثّوابِ والعقابِ والجنّةِ والنّارِ حقٌّ. والرّابع: لِلفعلِ والقولِ بحسَبِ ما يَجِبُ وبقَدرِ ما يَجِبُ، وفي الوقتِ الّذي يَجِبُ، كقولِنا: فِعلُكَ حقٌّ وقولُكَ حقٌّ، قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33][4]. والحقُّ ثابتٌ لا يتغيَّرُ، ونقيضُهُ الباطلُ، ونقيضُ العدلِ الظّلمُ؛ إذ بانتفائِهِ يحدثُ الميلُ. فالحقُّ هو الوجود على الوجهِ المُطابقِ للحقيقةِ، أمّا العدلُ فهو الوجودُ على مُقتَضى الحقِّ والاستحقاقِ.

العـدلُ أخـصُّ مِنَ الحقِّ؛ لأنّه جزءٌ مِنَ الحقِّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عدل).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (الحقّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (حقق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»